الاجتهاد

مجلة متخصصة تعنى بقضايا الدين والمجتمع والتجديد العربي الإسلامي

العددان الواحد والأربعون والثاني والأربعون

السنة الحادية عشرة

شتاء وربيع العام ١٤١٩هـ/١٩٩٩م

رئيسا التحرير

الفضل شلق ورضوان السيد

مدير التحرير المسؤول

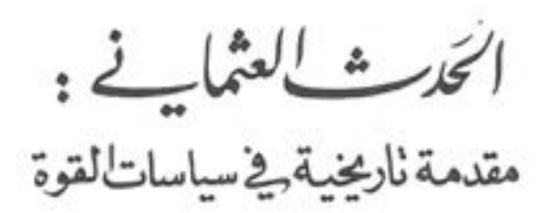
محمد السماك

تصدر عن :

دار الاجتهاد للأبحاث والترجمة والنشر

ص.ب. : 5581/14 ـ بيروت ـ لبنان ـ تلفون : 866666، 862205

ساقية الجنزير ـ بناية برج الكارلتون ـ الطابق الثاني



شمس الدين الكيلاني

1 ـ من امتصاص الضربة الصليبية ـ المغولية إلى الحدث العثماني:

لم يرم أي من الطرفين سلاحه، فبعد خروج آخر صليبي من عكا (1291)، ظل كل شيء يُنذر بأن حقبة جديدة من الصراع تطلّ في الأفق، فالعالم لا يزال، مثلما هو اليوم، بعيداً، عن أن تقيم فيه الحضارات والأديان علاقاتها مثل أشخاص مهذبين على مركب واحد.

نعم، لقد خسر الفرنجة معركتهم الكبرى على حافة المتوسط الشرقية، وخسروا معها مراهناتهم على تحالف مسيحي ـ مغولي؛ لكنهم لم يتوقفوا عن التقدم في صقلية، أو في شبه الجزيرة الأيبيرية، وبالمقابل، فالمعارك على خطوط تماس الأناضول، حيث أسس عثمان بن أرطغرل إمارته في (1299)، ستلتهب بنيران لا تهدأ لقرون.

على الرغم من الخراب المدمّر، الذي لا مثيل له والذي أورثه الغزو المغولي: حملات (جنكيز خان) في دولة خوارزمشاه (1220 ـ 1221)، حملات (باتو) في الغرب والقرم (1231 ـ 1241)، و(هولاكو) على بغداد (1258)، إلاّ إن الإسلام، بالنهاية، سيأسر الغالب. حاول المسيحيون جذب المغول، ثم التحالف معهم، ضد الإسلام، في النهاية أخفقوا. ممثل البابا (أنوسنت الرابع) الفرنسيسكاني (جوفاني دي كاربيني) زار (قراقوروم) عاصمة المغول (1245 ـ 1247)، ثم زارها عامي (1253 ـ 1255) ممثل لويس التاسع

ملك فرنسا و«كانت الفكرة من هاتين البعثتين احتمال قيام تحالف مغولي - أوروبي مع إمكان اعتناق المغول المسيحية، لكن لم يكن لهذه المحاولات نتائج في أي من القضيتين، وفي النهاية اعتنق المغول الإسلام»[1] ولم تُثمر أيضاً رحلة (ماركو بولو) الأكثر شهرة عام (1275 ـ 1292) عند (قوبلاي خان)[2].

غمرت الموجة المغولية بلاد الإسلام، في القرن الثالث عشر، وما انحسرت إلا وتركت وراءها الدمار والخواء في كل مكان، مزيلة معالم المدينة الإسلامية، ومدنها الزاخرة، وزادت الظواهر والميول التي أبرزها الغزو الصليبي قوة: تراجع الحياة المدنية، والبداوة على الحضر، والتفكك[3]. وستدفع باتجاه اختلاطات سكانية هائلة: من أطراف (الصين) حتى غرب (الأناضول) والبحر الأسود، إلى شمال العراق، وإيران، وبحر الخزر، وخوارزم والهند، مع إبراز دور العنصر التركي ـ المغولي في أحداث التاريخ الإسلامي. وستتأكد، منذ الآن، تدريجياً التنوعات اللغوية والإثنية للأمم الإسلامية «وكانت إحدى نتائج الهجرات التركية، وغزوات المغول أن توضّح انقسام الأقطار الإسلامية إلى مناطق لغوية عربية وفارسية وتركية منفصلة يقتصر الاتصال الأدبي فيها على دوائر محدودة من المثقفين»[4] وإن بقيت اللغة العربية لغة الثقافة للمسلمين عامة.

(1) أرنولد توينبي، تاريخ البشرية، الجزء الثاني، د. نقولا زياده، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، 1986، ص 179
(2) أنظر: هـ.ج. ويلز، معالم تاريخ الإنسانية، عبد العزيز جاويد، المجلد الثالث، الكتاب السابع، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1950، ص ص 747 ـ 754.
(3) يقول كلود كاهن: «من المؤكد أن العهد المغولي قد تسبب فعلاً في تدهور الاقتصاد الريفي لصالح الرعي، يوازي هذا التطور تحولاً آخر سببته غزوات بني هلال في المغرب»، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، جزء ثالث، بدر الدين القاسم، دار الحقيقة، بيروت 1983، ط 3، ص 268.
(4) هاملتون جب، التاريخ الإسلامي في العصور الوسطى، المركز العربي للكتاب، دمشق، بدون تاريخ، ص 38.

على الرغم من كل النتائج السلبية لغزوات المغول، إلا أنه يمكن القول، إذا أخذنا الأمر من زاوية الصراع مع الغرب، إن مجيء المغول ـ تماشياً مع رأي توينبي ـ يعتبر عنصر تقوية وليس عنصر إضعاف للقوى السياسية والعسكرية للإسلام، وإن لعب على صعيد الثقافة والمدنية دور إضعاف.

أحفاد جنكيز خان في الدول الثلاث التي تفرعت عن بيته اعتنقوا الإسلام: القبيلة الذهبية في النصف الغربي من السهوب الأوراسية عام 1313، والإيلخانيون في إيران والعراق عام 1295، و(التشاغانيون) فيما وراء النهر عام 1326[1].

امتص العالم العربي ـ الإسلامي الصدمة، وستنقشع محنة الحصار بين المغول والصليبيين التي واجهها في بداية القرن الثالث عشر «فما أن دنا آخر القرن حتى تغير الحال وأصبح عزيز الجانب»[2]، وبعد نصف قرن من الدمار المروع الذي أحدثوه في بغداد، سيكرس خلفاء هولاكو وقتهم لإحياء معالم الثقافة الإسلامية.

كان اعتلاء (غازان) العرش عام (1295) في (تبريز) نقطة فاصلة في تاريخ الدولة المغولية (الإيلخانية)، لأنه حالما اعتلى العرش أعلن اعتناقه للديانة الإسلامية رسمياً «واختار أهل السنة وهذا هو المذهب الذي يعتنقه جميع أفراد الشعب تقريباً، ومع ذلك فقد عامل الشيعة بتسامح»[3] إلا أن هذا لم يخفف من حدة صراع الهيمنة مع المماليك، وقد يكون هذا وراء تشيع أخيه «أولجايتو»، الذي انقلب إلى المذهب الشيعي بعد تتويجه خلفاً لأخيه (1310)، فازداد عدد الشيعة في (إيران) ومن حينها «لم تعد ما بين النهرين

(1) راجع أرنولد توينبي، تاريخ البشرية، الجزء الثاني، مصدر سابق ص 156.
(2) د. فيليب حتي، د. ادوار جرجي، د. جبرائيل جبور، تاريخ العرب المطول، الجزء الثاني طبعة رابعة، دار الكشاف بيروت 1965، ص 584.
(3) برتولد شبولر، العالم الإسلامي في العصر المغولي، خالد أسعد عيسى، دار حسان، دمشق، طبعة أولى 1982، ص 72.

العربية والخاضعة لمغول إيران سوى منطقة عازلة أصابها الدمار.. وتم استقطاب العالم الإسلامي في المشرق حول بعض الحواجز في شمال غرب إيران من جهة وحول سوريا ثم القاهرة من جهة ثانية»[1].

وبالإضافة إلى ما تم إنجازه منذ العهد الأموي، من تحويل حوض السند الأدنى، والملتان إلى الإسلام، ومد السلطان (محمود الغزنوي) للحدود حتى (لاهور) التي أصبحت في عهد الغزنويين قاعدة أمامية للثقافة الإسلامية في الهند، ثم ضم الجزء الإسلامي في حوض السند والملتان؛ سيجعل الغوريون من هذا مقدمة لفتح ما تبقى من شمال الهند، وسيؤسسون في القرن الثالث عشر، أثناء الاضطرابات في المشرق العربي، سلطة دلهي (1206 - 1555) وستؤول الهند كلها لأول مرة لقبول الحكم الإسلامي إلى حد ما[2].

سيضع الغزو المغولي، بقيادة (باتو) حداً للتوسع الروسي جنوباً أو في الاتجاه الجنوبي - الشرقي، ذلك التوسع الذي بدأه الروس منذ القرنين الحادي عشر والثاني عشر، فتتحول بذلك حركة التوسع باتجاه آخر، إلى الشمال والشمال الشرقي. وقد فرضوا سلطتهم على الإمارات الروسية، فأظهر أمراء (موسكو) من الطاعة والولاء إلى الدرجة التي اعتمدهم فيها خانات الفولغا كجباة للضرائب والجزية بين إمارات (روسيا).

وطوّر هؤلاء (الخانات) علاقاتهم مع مصر، فأمدوا المماليك من قاعدة الفولغا وسواحل البحر الأسود بالعبيد/الجنود، ومن (مصر) كانت ترد إليهم البضائع: المنسوجات الناعمة الجميلة، والفواكه المختارة، والعطور النادرة، والحيوانات الغريبة، وأيضاً الصُنّاع الحرفيين، وعلماء الدين الذين كان

(1) كلود كاهن، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، مصدر سابق ص 264.
(2) أرنولد توينبي، تاريخ البشرية، الجزء الثاني، مصدر سابق ص 124. راجع أيضاً: عزيز أحمد، الهند، تراث الإسلام، القسم الأول، إشراف: شاخت وبوزوث، سلسلة عالم المعرفة، آب 1978، ص 197. راجع: ستانلي لين بول، الدول الإسلامية، محمد صبحي فرزات، مكتبة ملاح، دمشق 1984، ص ص 619 - 631.

لنشاطهم آثار هامة في تطور مغول روسيا، فتوطدت هيمنة الثقافة الإسلامية على الشعوب المغولية على ضفاف الفولغا وتحولت (بركا) والمغول إلى الإسلام بطريقة سلمية[1].

وظل الإسلام يتقدم عن طريق الاتصالات السلمية: التجارة وتأثير الطرق الصوفية، ويذكر (الفضل شلق) بحق: إن العرب رغم خسارتهم السلطة السياسية ظلوا «ينشرون الإسلام في آسيا: أندونيسيا وسنغافورا وغيرها، وفي إفريقيا السوداء حصيلة التجارة، وأصحاب الطرق الصوفية، والدعاية الدينية»[2].

فقط، على جبهة الأندلس، ومنذ القرن الثالث عشر، بدأ يتآكل الوجود العربي تدريجياً. أما في قلب العالم الإسلامي، في مصر والشام والحجاز، فسيرث المماليك سلطة الأيوبيين نحو مئتين وسبعين سنة من 1250 لغاية 1517. ومع أنهم كانوا أقل ثقافة، إلاّ أنهم سيتركون المجتمع الأهلي يعبر عن نفسه ثقافياً، استمراراً لجدل العلاقة بين الجماعة والسلطان التي تميّز التجربة العربية - الإسلامية.

سيحتفظ العرب بمكانتهم في مجال علم الفلك، والرياضيات، ومنها علم المثلثات، وعلوم الطب ولا سيما طب العيون، يشهد على ذلك انتشار (البيمارستانات) التي بناها (قلاوون) في مصر والشام. وإنجاز أبي الحسن علي ابن النفيس وما قدمه من صورة واضحة عن الدورة الدموية الصغرى قبل سرفيتس البرتغالي بثلاثة قرون، ومثله أبو بكر ابن المنذر البيطار في البيطرة[3]. ولا بد من ذكر أحمد بن تيمية (1263 - 1328) الدمشقي في علم

(1) راجع: برتولد شبولر، العالم الإسلامي في العصر المغولي، مصدر سابق، ص ص 93 - 98.
(2) الفضل شلق، الأمة والدولة، جدلية الجماعة والسلطة في المجال العربي الإسلامي، دار المنتخب العربي، 1993، ص 62.
(3) د. فيليب حتي، تاريخ العرب المطول، مصدر سابق، ص 809.

الفقه، وابن خلكان (1211 ـ 1282) في موضوع التراجم، وسيستمر نشاط المصنفات التاريخية الموسوعية، على أيدي أبي الفداء، وابن تغري بردي، والمقريزي، وسيشهد هذا العصر مأثرة ابن خلدون الخالدة (المقدمة)، التي لا تضاهيها سوى (ألف ليلة وليلة) في المجال الإبداعي، التي تعتبر أجمل أثر أدبي ابتكره الخيال البشري، وهي تقف مع مقدمة ابن خلدون في ذروة الأعمال الفكرية لهذه الحقبة. وشهد هذا العصر انتشار سيرة عنترة، والظاهر بيبرس، بالإضافة إلى مقامات الحريري.

وسيكرس المماليك عنايتهم بالفن والعمارة، وربما كان نشاطهم الأكثر إثارة وأصالة ـ كما يقول كاهن ـ إنما ظهر في ميدان الفنون: الأضرحة والمساجد والمدارس والقصور[1] فجعلوا من القاهرة إلى اليوم ـ كما يقول حتي ـ أجمل البقاع في العالم الإسلامي.

ولأن الظاهر بيبرس، أول المماليك العظام، كان حريصاً على اكتساب الشرعية المرجوة، فإنه أعاد تجديد بناء الخلافة العباسية التي ضاعت بدمار بغداد. فاستقدم عم المستعصم، آخر خلفاء بني العباس وابن الخليفة الظاهر، ونصبه خليفة في القاهرة متخذاً له لقب المستنصر الذي «سيتسلم وثائق البيعة من حكام الهند والسلطان بايزيد سلطان العثمانيين»[2].

حمى المماليك أرض الشام ومصر من الغزو المغولي، وهزموهم في (عين جالوت)، وردوا غزوة (تيمورلنك) البربرية في فاتحة القرن الخامس عشر، إلاّ أنهم لاحقاً، وخاصة على الصعيد السياسي ـ العسكري، وفي إدارة الدولة، سينكشف عجزهم في القرن الخامس عشر وفي حقبة (المماليك البرجية) في ضبط وحماية الداخل، وفي ردع الخارج، مما سيترك فراغاً في السلطة والقوة والشرعية سيملؤه العثمانيون لاحقاً.

(1) راجع كلود كاهن، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، مصدر سابق، ص 265.
(2) د. فيليب حتي، تاريخ العرب المطول.. مصدر سابق، ص 800.

ورغم ذلك، فقد كانوا حتى نهاية القرن الرابع عشر قوة هيابة رادعة بالنسبة للغرب. فإذا كانت (أبو لغد) قد اعتبرت الفترة (1250 ـ 1350) بمثابة «ولحظة مثلت توازناً دقيقاً بين الشرق والغرب، وكانت احتمالات اختلاله لصالح أحد القطبين متعادلة»[1] فإن (هـ.جـ.ويلز) لا يتردد في القول: «إذا حكمنا استنتاجاً من الخريطة قلنا: إن القرون الثلاثة من بداية القرن الثالث عشر حتى نهاية القرن الخامس عشر كانت عصر تراجع بالنسبة للمسيحية»[2].

إذا نظرنا إلى الأمر من زاوية تطور الثقافة الإسلامية، فإننا سنجد شواهد حية على استمرار ازدهار هذه الثقافة، رغم انحطاط الحياة المدنية ـ والسياسية، إذ إن الاستقلال النسبي للجماعة الإسلامية، وبالتالي ثقافة المجتمع الأهلي عن السلطان هو القانون الذي حكم الجدل بينهما[3].

إن أردنا تتبع المسبقات التاريخية قليلاً، فإننا نجد، ومنذ عصر (المأمون) على الخصوص، بروز نوع من التقليد الاجتماعي ـ التاريخي واضح المعالم، عندما فشل (المأمون)، اعتماداً على قوة (الدولة ـ الخلافة) التي يترأسها، في تحويل مبدأ (المعتزلة)، الذي جعله (مذهباً للدولة ـ الخلافة)

(1) جانيت ل. أبو لغد، النظام العالمي في القرن الثالث عشر، الاجتهاد، العدد السادس والعشرون والسابع والعشرون، السنة السابعة، 1995، ص 219.
(2) هـ. ج. ويلز، معالم تاريخ الإنسانية، مصدر سابق، ص 774.
(3) راجع في هذا المجال: الفضل شلق، الأمة والدولة، مصدر سابق، ص ص 15 ـ 41. ووجيه كوثراني، السلطة والمجتمع، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 1988، ص 35. حيث يقول: «وهذا ما يسوغ الحديث عن انفصال بين الأمة والدولة في التاريخ الإسلامي، فالأمة كإطار انتماء عقدي وفكري وسلوكي للجماعة لم تندمج اندماجاً عضوياً مع الدولة». راجع أيضاً: رضوان السيد، الأمة والجماعة والسلطة، دار اقرأ، بيروت، ط 2، عام 1986، ص 77. حيث يقول: «وأصل المسألة أن الأمة هي الشارعة وقد كان جائزاً في العقل أن تتولى الأمر بنفسها من خلال جماعتها، ولكنها آثرت أن تسد ذرائع الفساد، بسبب تكالب الأعداء عليها.. فأجمعت على تولية الإمام، والإجماع شرع».

إلى دين للجماعة. انتهى الصراع بانتصار الجماعة ـ السنة. تلك النتيجة «كانت برهاناً قاطعاً على استقلال النظام الديني الإسلامي عن الخلافة، وغيرها من المؤسسات السياسية، وعلى أن الحكام السياسيين لا يستطيعون الإشراف على مصادر سلطان الدين، لأنها ملك الجماعة، ولا علاقة لأحد بها. وإن الخلافة ذاتها نابعة من ذلك السلطان وإنها رمز سياسي له»[1].

سيظهر الانقسام بين النظام الديني والنظام السياسي، حيث تُرك النظام الثاني حراً في تطوره دون أن يكون للنظام الديني سوى سيطرة ضئيلة نسبياً عليه[2]. وإن هذه الحقيقة ستجعل التطور التلقائي النسبي يحكم الحياة الثقافية بجوانبها الدينية والأدبية والفكرية.

في مرحلة سيادة (السلطنة) البويهية ـ الشيعية، سيزداد التأكيد في الوعي والممارسة، على هذا الاستقلال النسبي للسير الثقافي ـ الديني وسيقوى التأكيد على حياة الجماعة مقابل حياة الدولة ـ السلطان، وتصبح الخلافة رمزاً للجماعة بعد أن فقدت فعلها السياسي. أو كما يعبر عن ذلك (شلق): «صارت رمزاً دينياً عندما فقدت سلطتها الفعلية»[3].

سينظم الشافعية، ومنذ السنوات الأولى للقرن الحادي عشر، المدارس السنية محاكاةً منهم لمراكز الدعوة التي أسسها الفاطميون. ولتحرير الخلافة من سيطرة الشيعة سيجري التحالف مع السلاجقة، بمباركة من الخليفة رسمياً، فتوثقت من جديد الروابط بين الهيئة الحاكمة والنظام الديني ـ الثقافي.

الوزير السلجوقي العظيم (نظام الملك) سيؤسس (المدرسة) إلى جانب المسجد، كحاضنة لتعميم العلم والثقافة وتقنينهما، بعد أن كان المسجد إلى

(1) هاملتون جب، التاريخ الإسلامي في العصور الوسطى، مصدر سابق، ص 15.
(2) المصدر السابق، ص 18.
(3) الفضل شلق، الدولة والأمة، مصدر سابق، ص 39.

عهده يقوم بهذا الدور لوحده. (المدرسة) ستصبح مركزاً لتوحيد التعليم العالي ولتنظيمه، ولتدريب فئات جديدة من رجال الإدارة والموظفين. ستنتشر المدرسة (النظامية) في كل مكان ومعها العلم والثقافة[1] وبالإضافة إلى هذا، أعاد (نظام الملك) ترتيب نوع من النظام الإقطاعي حقق فيه دمج المؤسسة العسكرية وهيئة الموظفين بطبقة الملاك، محاولاً، بكلا الإجراءين السابقين، ربط النظام الديني بالدولة عن طريق تخريج النخب الجديدة من المدرسة (النظامية)، وتوثيق صلة الجند بالأرض عن طريق الإقطاع العسكري. وعن طريق هذا الربط، يستطيع النظام الديني أن يكسب الهيئة الحاكمة، وهو يسعى لإعادة الوحدة، إذ علينا أن ننسى ـ كما يذكّرنا جب ـ أن تجربة الانبعاث السني: النظام الديني والثقافي، كانت حركة عامدة محكمة ضد تجربة الفصل بين النظام الديني والهيئة الحاكمة خلال فترة الدولة الشيعية[2]. إلاّ أن هذا الفصل سيأخذ شكله الجديد، ويتمفصل بشكل أوضح لإبعاد التناحر بين السلطة والشريعة بتحديد مجال مناسب لكل منهما لا ينفصمان فيه نهائياً ولا يستغرقان في بعضهما أو يندمجان بشكل قسري، وذلك بتأسيس (السلطنة) لتكون أداة للإدارة السياسية والعسكرية، تقوم إلى جانب الخلافة. وإن كانت السلطنة من الناحية النظرية تخضع للخلافة التي تقوم على رأس النظام الديني.

(1) د. حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، الجزء الرابع، دار الجيل، بيروت، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة 13، 1991، ص 402 ـ 403. حيث يقول: «ظل المسجد المعهد الأول للثقافة العربية الإسلامية، فلم تنشأ المدرسة كجهاز للثقافة والتعليم قبل القرن العاشر (الرابع الهجري) إذ قامت المدرسة البيهقية في نيسابور.. إلى أن نظام الملك وزير ملك شاه السلجوقي (465 ـ 485هـ) هو من أسس المدرستين المشهورتين اللتين تعرفان باسمه في بغداد ونيسابور، وتعرف كل منهما بالمدرسة النظامية كما أسس المدرسة الحنفية في بغداد، وكان الإمام الغزالي يقوم بالتدريس في المدرسة النظامية..». راجع أيضاً، هاملتون جب، التاريخ الإسلامي في العصور الوسطى، مصدر سابق، ص 28. راجع أيضاً: لويس يونغ، العرب وأوروبا، ميشيل أزرق، دار الطليعة، بيروت، 1979، ص 47.
(2) هاملتون جب، التاريخ الإسلامي في العصور الوسطى، مصدر سابق، ص 32.

وتأكيد هذه الثنائية ربما كان الغرض منه هو حفظ الاستقلال للنظام الديني ـ الثقافي في وجه الأمراء، ثم الإبقاء في الوقت نفسه على وحدة الجماعة فيجد كل طرف من مصلحته تأييد الآخر «فالملك والدين توأمان»[1] وكان من آثار هذه المدرسة ومن هذه النهضة الثقافية التي رعتها تلك المدرسة، أن ظلت فعاليتها مستمرة في دار الإسلام لعدة قرون.

سيرث نور الدين زنكي هذا النظام: المدرسة كحاضن للثقافة والعلم، والإقطاع العسكري كنظام لإدارة الأرض الزراعية، في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) سيحافظ عليه صلاح الدين الأيوبي وخلفاؤه في مصر والشام، إبان فترة المواجهة مع الفرنجة. بنى (نور الدين) مدارس للشافعية والحنفية في دمشق وحلب، وغيرها. ثم عني (صلاح الدين) عناية خاصة ببناء المدارس الأيوبية مثل الناصرية، والقمحية، والسيفية...[2].

الحالة الثقافية نفسها سيُعايشها المغرب العربي، حيث شكلت هذه الحقبة بالنسبة للمغرب «ذروة ثقافية، ذلك أن جميع أجزائه شاركت فيها لأول مرة.. فبفعل الدعاية السنية المضادة التي عكست نفسها ضد الفاطميين.. تمت بادىء ذي بدء في بلاد السلاجقة ثم تبناها المرينيون فكانت لفاس وتلمسان وتونس مدارسها العظيمة، وما زال بعضها موجوداً حتى الآن.. ستتوّج في القرن الثالث عشر والرابع عشر بتفتح ثقافي»[3] على الرغم من الضعف السياسي.

ستترافق ظاهرة الانبعاث الثقافي، التي بدأت بشكل لافت منذ القرن الحادي عشر، مع اندياح القبائل البدوية في الاتجاهات المختلفة. القبائل التركية غمرت شرق فارس وامتدت إلى العراق والشام (شمال سوريا)، وقبائل

(1) المصدر السابق، ص 31.
(2) د. حسن ابراهيم حسن، تاريخ الإسلام.. مصدر سابق، ص 402 ـ 403.
(3) د. عبد الله العروي، تاريخ المغرب، محاولة في التركيب. د. ذوقان قرقوط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط 1، 1977، ص 214.

عربية اجتازت الشام ومصر وشمال إفريقيا، يصاحبها تدهور سياسي واقتصادي، وانحسار تدريجي للحياة المدنية وحياة الحضر، مما يهدد منابع الثقافة «هكذا ففي الوقت الذي نجح فيه النظام السني في تنسيق ثقافة الإسلام المدينية تحت لوائه، كانت هذه الثقافة تنكمش بسبب توسع البدو.. في هذه الأثناء بدأ زعماء السنة يدركون ما لدعوة الانبعاث الديني، التي يتزعمها الصوفية، من قيمة بين عامة أهل المدن وفي الأرياف»[1].

الظروف القاهرة أدت إلى التساهل، والإمام الغزالي سيوفق بين الشريعة والتصوف، بتركه حيِّزاً مشروعاً للتجربة الصوفية المنضبطة بأحكام الشريعة. والمدارس الصوفية ستتكاثر، تخرج المريدين، وستصبح مراكز جديدة للفقه، وللتأثير الروحي على العامة. وأخذ شيوخهم يجوبون العالم الإسلامي يحملون بذور التبادل الثقافي والديني. الطرق الصوفية الكبرى: السهروردية والقادرية، والشاذلية ستسهم في الحفاظ على الوحدة الثقافية للمسلمين، أثناء مصائبهم الكبرى السياسية والمدينية. استطاع المسلمون التوفيق، أو التعايش بين الانحطاط السياسي، واستمرار حيويتهم الثقافية، بين عملية التشظي السياسي، وحالة الازدهار الثقافي[2].

بعد أن هدأ ضجيج الخراب المغولي ـ الصليبي، في القرن الثالث عشر، وهي الفترة التي تشهد تمزق ديار الإسلام والعرب، وإفقارهم المدني، «لم تحافظ هذه الحضارة على تماسكها الداخلي فحسب، بل حققت تقدماً أيضاً على نطاق عالمي، على نحو أكثر إثارة حتى من الفتوحات العربية التي

(1) هاملتون جب، التاريخ الإسلامي في العصور الوسطى، مصدر سابق، ص 35.
(2) راجع: ريتشارد ايتون، الحضارة الإسلامية والتاريخ العالمي، الاجتهاد، العدد السادس والعشرون والسابع والعشرون، سنة سابعة، 1995، ص 201. حيث يقول: «أكد هودجسون ـ أكثر من غالبية المثقفين ـ على التزامن بين عملية التشظي السياسي» وعملية «ازدهار الثقافة في التاريخ الإسلامي» «وعلى العلاقة بين هاتين الظاهرتين».

تمت في القرنين السابع والثامن الميلادي.. العلماء والأولياء والقديسون والمتصوفون الذين طوروا بدءاً من القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) مجموعة كاملة من الشعائر والتعاليم، والنظم القانونية، والأعراف الاجتماعية، والتقاليد الروحية، وأشكال الطاعة، والحساسية الجمالية، وأساليب الدراسة، ومدارس الفلسفة، التي ركزت وبنت لبَّ وجوهر الحضارة الإسلامية.

ونظراً لأهمية وحيوية هذا الجوهر كانت الحضارة الإسلامية قادرة على البقاء، وحتى التوسع وسط مختلف التقادير السياسية»[1].

وكانت علاقة العلماء (القضاة، المفسرين، رواة الحديث، أئمة المساجد، الوعاظ...) والصوفية بالجماعة وجمهور العامة، أقوى من علاقة الحكام بهم. وكان من أهم تطورات القرن الثالث عشر انتشار العديد من الطرق الصوفية كتعبير عن الإسلام والهوية الاجتماعية، كما يقول لابيدوس[2].

ومن الملفت للنظر، كما يقول ريتشارد ايتون: «إن المذاهب والنماذج الصوفية الشهيرة ظهرت في القرن الثالث عشر والرابع عشر، أي في الفترة التي كانت قد تحطمت فيها الوحدة السياسية للمجتمع»[3].

غدت (ديار الإسلام) بحق، نظاماً عالمياً يرتوي من ثقافة واحدة، يتكلم مثقفوها بلغة واحدة: لغة القرآن،فابن بطوطة المغربي رجل العالمية الإسلامية، الذي قضى في رحلاته ثلاثين عاماً في النصف الثاني للقرن الرابع عشر، عبر قارتي آسيا وإفريقيا: «في كل مكان يرحل إليه كان يجد تجاراً مثقفين، علماء، وصوفية، وأمراء، يتحدث إليهم بالعربية في موضوعات تمتد من التصوف إلى الفقه.. وتغصّ فصول كتابه كله بتقارير بلهجة واثقة، تشي

(1) ريتشارد ايتون، الحضارة الإسلامية والتاريخ العالمي، مصدر سابق، ص 195 ـ 196.
(2) راجع: الفضل شلق، تاريخ المجتمعات الإسلامية، قراءة في كتاب، ا. لابيدوس، الاجتهاد، العدد السادس والعشرون والسابع والعشرون، سنة سابعة، 1995، ص 275.
(3) ريتشارد ايتون، الحضارة الإسلامية والتاريخ العالمي، مصدر سابق، ص 197.

بالوحدة الثقافية لدار الإسلام من إسبانيا إلى الصين، ويستطيع التوقع في أن يجد منصباً ضمن الجماعة الإسلامية»[1].

في فارس والأناضول، بعد انهيار الحكم المغولي، وانهيار السلطات الحاكمة واجتياح البدو، كان من الطبيعي أن يكون التصوف قاعدة التضامن لمواجهة ظلم الطغاة، وتحولت تلك التضامنات في ظروف الخطر الخارجي إلى عصبة مجاهدة في «سبيل الله».. فكنت تجد أهل الحرف في مدن الأناضول ينتظمون في نقابات من النوع «الآخي»، ومعظم الإمارات الصغيرة بمثابة «دول مجاهدة» نذرت نفسها لمحاربة «ديار الكفر». في هذه الحال، يصبح من الطبيعي ومن غير المستغرب، أن نجد «أن واحدة من الإمبراطوريتين اللتين ظلتا تقتسمان غرب آسيا فيما بينهما حتى القرن العشرين، أعني الامبراطورية العثمانية كانت في الابتداء «دولة مجاهدين»، وإن شيوخاً من فروع الطريقة السهروردية هم الذين أوجدوا الامبراطورية الأخرى المنافسة للعثمانية وهي الدولة الصفوية في فارس»[2]. هاتان الدولتان ستلعبان دوري اللاعب الأول، مع اختلاف مضمون دور كل منهما، في «مغامرة الإسلام الكبرى» في القرون اللاحقة.

2 ـ ظهور الحدث العثماني:

وحدهم العثمانيون في ظل أوضاع التمزق والتراجع السياسيين، وفي قلب المجابهة الكبرى حول مصير الإسلام، سيقلبون نهج التراجع التكتيكي، أو نهج الدفاع الاستراتيجي الذي انتهجه المسلمون إلى سياسة الهجوم الاستراتيجي الشامل، ناقلين بذلك المعركة إلى قلب أوروبا.

سيكون ابن خلدون أول كاتب عربي أشار إلى إمارة بني عثمان، وأدرك إمكاناتها «كانت إمارة متحفزة للدفاع والهجوم، إمارة غزاة كونت لنفسها سجلاً

(1) المصدر السابق، ص 213 ـ 214.
(2) هاملتون جب، التاريخ الإسلامي في العصور الوسطى، مصدر سابق، ص 41.

حافلاً من روايات البطولة، واجتذبت إليها أعداداً من المتحمسين لنصرة الدين والجهاد»[1].

هنا في الأناضول، على الحدود الفاصلة بين دار الإسلام، وأوروبا المسيحية ستأتي الأفعال كأجوبة على الأسئلة المصيرية التي طرحتها أوضاع القرن الثالث عشر والرابع عشر، والتي يمكن اختزالها بسؤال واحد: لمن الغلبة؟

لقد نهضت إمارة آل عثمان في حقبة من الزمان، هي أشدّ الحقب سوءاً على العرب والمسلمين. في الشرق تهاوت الرؤوس، والمدن والعروش، وفي أقصى غرب العالم العربي ـ الإسلامي: في الأندلس هزيمة «وقعة العقاب» وما سيترتب عليها من تقهقر وانحسار دائمين للوجود العربي في شبه الجزيرة الإيبيرية. وسادت في العالم الإسلامي، في هذه الفترة، أنظمة للحكم سيطر عليها المماليك، وهم جماعة من العسكريين الدخلاء، أكثرهم من أصل تركي، جعلوا من أنفسهم أسياداً على شعوب غريبة عنهم[2]، والإقطاع العسكري السلجوقي الذي قام بوظيفة ربط الأرض بالدولة، والذي تحول في زمن نور الدين زنكي، وصلاح الدين، وبداية العصر المملوكي إلى نوع من الفروسية العربية ـ الإسلامية تمنحه ملكية الأرض قاعدة مادية مضمونة. سيتحول ذلك الإقطاع إلى أداة مرعبة لضبط وإرهاب المجتمع، ووسيلة مناسبة لنهب الداخل وإفقاره في الوقت الذي

(1) عبد الكريم غرايبه، العرب والعثمانيون، دراسة لتطور العلاقة بين الأمتين خلال ألف عام، جامعة دمشق 1961، ص 272. ويقول محمد فؤاد كوبريلي: «ولما كانت مناطق الحدود هذه واقعة في أقصى دار الإسلام من ناحية الغرب، وكان الصراع فيها مصطبغاً إلى حد ما بالصبغة الدينية وله طابع الجهاد المقدس، ووفدت جماعات مختلفة من الناس يتزيون بزي الدراويش المجاهدين. . طلباً للجهاد»، قيام الدولة العثمانية، ترجمة: د. أحمد سعيد سليمان، دار الكاتب العربي، ص 137.

(2) برتولد شيولر، العالم الإسلامي في العصر المغولي، مصدر سابق، ص 72.

ضعف فيه عن مواجهة الخارج[1].

لذا، لما خرج العثمانيون على سطح أحداث التاريخ تعلقت بهم آمال المسلمين جميعاً، هؤلاء العثمانيون الذين بدأوا دولتهم «كولاية لمحاربي تخوم، بحيث جذبت المتطوعين، وهي الأكثر قرباً إلى بيزنطة، فكان فيها أفضل الفرص للحروب المقدسة»[2].

منذ دخول (أرطغرل) آسيا الصغرى هرباً، تحت دفع أمواج القطعان المغولية سيقطعه السلطان السلجوقي علاء الدين إمارة على حدود بيزنطة، عربوناً لنصرته له، وسيحول ابنه عثمان مؤسس الإمبراطورية العثمانية، الذي أخضع حكمه لمشورة الفقهاء، سيحول تلك الإمارة إلى نقطة ارتكاز للتوسع على حساب بيزنطة[3] أكسبهم موقعهم قبالة المدن اليونانية الثلاث بروصه، وبيكوميديا (أزميت)، نيقيه (أرتك) موقفاً هجومياً. احتلوا بروصة 1326، نيقيه 1331، وأزميت 1337، ولما استولوا على موطىء قدم لهم على الشاطىء الأوروبي (غليبولي) 1353 تحكموا بعقدة المواصلات البحرية بين الأناضول وتراقيه[4] فكان الظهور العثماني بمثابة الحدث الأعظم في الشرق المتوسطي خلال القرن الرابع عشر.

يرجع أول هجوم جدي على القسطنطينية إلى عام 1337 بعد الاستيلاء

(1) راجع: محمد عمارة، العرب والتحدي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1980، ص 154. حيث يقول: «لقد بدأت القصة بمؤسسات فروسية لجأت إليها الأمة كي تتخذ منها أداة نقل بها فروسية أمراء الإقطاع الصليبيين وإذ الأداة تتحول هي إلى أصل، وأن الأمة تتحول إلى أداة، وهؤلاء الجند الذين اشترتهم الأمة رقيقاً، ثم دربتهم وسلّحتهم، تحولوا بعد النصر العسكري إلى سادة واستبدوا بالأمة».

(2) د. عبد العزيز محمد الشناوي، أوروبا في مطلع العصور الحديثة، الجزء الأول، دار المعارف بمصر، 1969، ص 521.

(3) أرنولد توينبي، تاريخ البشرية، الجزء الثاني، مصدر سابق، ص 187.

(4) راجع، عبد الله العروي، تاريخ المغرب. . مصدر سابق، ص 232 ـ 233.

على بروصه 1326، أما وقد فشلت هذه المحاولة فإن الأتراك سيبدأون بحركة التفاف واسعة النطاق حولها، داخل أوروبا براً، تشبه من وجوه مختلفة حركة التفاف البرتغاليين حول إفريقيا إلى بحر العرب نحو الهند بعد أكثر من قرن ونصف، لتطويق ديار العرب والمسلمين. حركة الالتفاف العثمانية هذه دفعت (البابا) أن يرسل النداء تلو النداء لملوك الغرب للقيام بحملة صليبية جديدة، وحدهم الإيبيريون: الإسبان، والبرتغاليون سيستجيبون لتلك النداءات فعلياً، لكنهم بدلاً من الذهاب لملاقاة المسلمين بعيداً شرقاً سيفضلون، في البداية، الهجوم على مواقعهم في الأندلس القريبة، وحيث لم يعد المرينيون من عام 1340 يستطيعون التدخل عسكرياً في إسبانيا.

سيتابع أخلاف عثمان (1299 ـ 1326) غاراتهم على شرق أوروبا، فيستولون على أدرنة، ويجعلونها حاضرتهم في أوروبا عام (1361) قاطعين بذلك الطريق بين القسطنطينية وما خلف أدرنة من بلاد البلقان، وعازلينها عن الأمم السلافية ـ الأرثوذكسية التي قد تجد فيها السند والحليف[1].

تحت قيادة السلطان مراد الأول (1359 ـ 1389) سيتغلبون عام 1389 على تحالف دول البلقان في معركة (قوصوه) الشهيرة محتلين بلغاريا وقسماً من صربيا والبوسنة وقسماً من هنغاريا، وعندما تداعت الجيوش الغربية، تلبية لنداء البابا وإنجاداً لـ (سيجموند) ملك المجر، سيهزمهم بايزيد الأول (1389 ـ 1402) في (نيقوبولس) عام 1396، وسيُرسل الوفود والهدايا والعبيد الأسرى المسيحيين إلى القاهرة، وبغداد، وتبريز، ومكة، وسينال من الخليفة المتوكل لقب سلطان الروم.[2] وساعد العثمانيين في ذلك النصر، تقديمُ أنفسهم كحماة

(1) راجع: جورج كيرك، موجز تاريخ الشرق الأوسط، عمر الإسكندري، مركز كتب الشرق الأوسط، القاهرة، سلسلة الألف كتاب: 114، ص 83.
(2) راجع: د. أحمد شلبي، التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، مكتبة النهضة المصرية القاهرة، طبعة أولى، 1967، ص 486. راجع أيضاً: جورج كيرك، موجز تاريخ الشرق الأوسط، مصدر سابق، ص 83.

للحرية الدينية للأرثوذكس المضطهدين من قبل سادتهم الكاثوليك[1].

النكسة أمام (تيمورلنك) المغولي في أنقرة 1402، لن توقف طويلاً تقدمهم، بعد حين سيعيد السلطان محمد شلبي (1403 ـ 1413) القوة والمكانة، بما اتخذه من تدابير. وسيأخذون عن أوروبا في هذه الفترة، استعمال الأسلحة النارية 1420، وفي عام 1444 سيستطيع مراد الثاني أن ينتزع النصر في معركة (وارنه) على التجمع الصليبي[2].

محمد الفاتح سيجعل من عام 1453 حداً زمنياً فاصلاً في تاريخ البشرية باستيلائه على القسطنطينية، رمز العالم القديم واتخاذها عاصمة له. تلك المدينة التي كانت الهدف الدائم للجيوش الإسلامية منذ عهد الخليفة الثالث، مروراً بالحملتين اللتين قادهما الأمويون، وبحملات هارون الرشيد، وقبله الهادي[3] وكما يقول (ديورانت): «لقد سقط الحصن الذي طالما حمى أوروبا من آسيا أكثر من ألف عام، وأصبحت طرق التجارة التي كانت مفتوحة في يوم من الأيام للسفن الغربية في أيد أجنبية، تفرض عليها المكوس أثناء السلم، أو تسدها بالمدافع في وقت الحرب»[4].

وأعلن محمد الثاني (الفاتح)، الذي قال عنه بروكلمان «كان يجمع في

(1) راجع: د. عبد الكريم رافق، العرب والعثمانيون، طبعة أولى، مكتبة أطلس، دمشق، 1974، ص 35.
(2) راجع: ستانلي لين بول، الدول الإسلامية، محمد صبحي فرزات، مصدر سابق، ص 474 ـ 475.
(3) د. أحمد شلبي، التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، مصدر سابق، ص 491/ 492. راجع أيضاً: برناردين كليتي، فتح القسطنطينية، شكري محمود نديم، مكتبة النهضة، بغداد، 1962، ص 38. راجع أيضاً: برنارد لويس، الحرب والسلام، تراث الإسلام، القسم الأول، إشراف شاخت وبوزوث، مصدر سابق، ص 285.
(4) ول ديورانت، قصة الحضارة، الجزء الثالث، مجلد سادس، ص 38.

شخصه جميع مظاهر عصره الفكرية والثقافية»[1]، إنه لا يمانع في إقامة شعائر الديانة للمسيحيين، ويضمن لهم الحرية الدينية، وأعطاهم نصف الكنائس، وجعل نصفها الباقي جوامع، واحتفل بتثبيت رئيس طائفة الروم الأرثوذكس بنفس الأبهة التي كان يُعامل بها البطارقة أيام ملوك بيزنطة، ومنحهم حق الحكم في القضايا الدينية والجنائية بشؤون طوائفهم[2]، وفرض عليهم مقابل ذلك دفع الخراج مستثنياً أئمة الدين فقط. . وقد تم فتح الصرب نهائياً في عهده (1460) واليونان وكورنثة (1458)، وأجبر (البندقية) على التنازل عن أشقوده.

سيساند محمد الفاتح تتار القرم المسلمين، في صراعهم مع الجنويين، وقد كان لهؤلاء الجنويين ممتلكات ومحطات تجارية في بحر إيجه وفي البحر الأسود. سيطردهم من بحر إيجه أولاً، وفي سنة 1461 انتزع لهم موقعاً هاماً في شمال الأناضول، ثم استولى في سنة 1475 على ثغر (كافا) الواقعة في شبه جزيرة القرم على البحر الأسود، ثم انتزع منهم آزوف على نفس البحر، ووضع يده على المحطات التجارية التابعة لجمهورية جنوه على شواطىء القرم واعترف تتار القرم بالسيادة العثمانية، وأصبح البحر الأسود بحيرة عثمانية[3] وبقيت بلاد القرم تابعة لهم لمدة ثلاثة قرون.

انطلاقاً من مواقع القوة العثمانية، وواقع الضعف السياسي والتمزق الأوروبيين «ابتدأت المخابرات بين الدولة العلية وبين البابا اسكندر السادس (بورجيه)، وملك نابولي، وميلانو، وفلورنسا، كل منهم يجتهد في محالفة الدولة العلية للاستعانة بجنودها البرية ومراكبها البحرية لمحاربة من عاداه»[4].

(1) كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، منير بعلبكي، منير أمين فارس، دار العلم للملايين، 1965، ط 4، ص 441.

(2) راجع: محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، مطبعة التقدم بمصر، 1912، ص 61.

(3) عبد العزيز محمد الشناوي، أوروبا في مطلع العصور الحديثة، مصدر سابق، ص 662 ـ 663.

الوضع على الجبهتين سيسمح لمحمد الثاني بوضع الخطط الجديدة للسيطرة على إيطاليا وعلى روما بالأخص، فأرسل الجيوش لهذا الغرض إلى مدينة أترنتو 1480، وهو الذي أقسم ليقدمن (الشوفان) لحصانه وهو واقف على مذبح كنيسة القديس بطرس في روما بعد أن يدكّ صرح البابوية[1].

وحين توفي السلطان محمد الفاتح عام 1481 كانت قد دانت له آسيا الصغرى وبلاد اليونان ومعظم شبه جزيرة البلقان، ووضع أقدامه على جانبي بحر الأدرياتيكي، بعد استيلائه على الجزائر الأيونية واشقودره وأوترانتو، وهدد سلامة إيطاليا بل أوروبا أجمع[2].

ساعدت الأوضاع الأوروبية إلى عثمان في مشروعهم الهجومي، فأوروبا لم تخرج بعد من فوضى الإقطاع إلى العصر الحديث. صحيح إنهم رجعوا من مغامرتهم (الصليبية) في شرق المتوسط بعد قرنين «يملكون نظرة جديدة، واتسع أفقهم» كما يقول ديلماس، وقد حصدت تلك المغامرة، ومعها اكتشاف البارود قلاع الإقطاع ورجالها، وبدأ ملوك أوروبا يقيمون مكان الأطر الإقطاعية مبادىء أولية للإدارة المركزية، ولكن كل هذا لا يزال قيد الإنجاز. وصحيح أن حرب (المئة عام) بين انجلترا وفرنسا قد وضعت أوزارها مع سقوط القسطنطينية مساهمة في تعزيز الروح القومية لدى الطرفين وقوت مركزية الدولة الانجليزية والفرنسية، ولكن بقيت هذه بمثابة ميول لم تتحقق واقعاً متكاملاً، إنما ظل الشيء المؤكد، أن إنجلترا وفرنسا عندما أشرفت حروبهما على نهايتها في القرن الخامس عشر، وعندما كان العثمانيون يسجلون تقدمهم في البلقان والقسطنطينية، كانا في حالة شلل سياسي شامل. وصحيح إنه منذ القرنين الرابع عشر والخامس عشر ستبدأ حركة النهضة في إيطاليا حاملة معها إحياء العلوم والآداب القديمة والنزعة الحسية والإنسانية، والتعلق بالحياة الدنيا،

(1) راجع محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، مصدر سابق، ص 71.

(2) راجع هربرت فيشر، أصول التاريخ الأوروبي الحديث من النهضة إلى الثورة الفرنسية، د. زينب عصمت راشد، د. أحمد عبد الرحيم مصطفى، دار المعارف بمصر، ط 3، 1970، ص 89.

وإعلاء قيمة الجسد. والنزعة الإنسية تبدأ في تأسيس الأخلاق والحقوق وتنتهي إلى السياسة، وهي لا تنفصم عن حركة النهضة: بترارك، دانتي، ميكيل أنجلو، بوكاشو، أراسمس، يترافق معها ظهور المطبعة 1445 وتسارع نشر المخطوطات في كل مكان، وستشرع أوروبا منذ القرن الرابع عشر استثمار الفحم واستخدم بارود المدفع، وكانت قد استخدمت «زناقات» الكتف لحيوانات الجر من عام 1000، وطوعت الريح لتدير طواحين الماء منذ عام 1015[1]، إلاّ أن هذا لم يخلق بعد واقعاً جديداً مبتكراً وحركة النهضة والإنسية ما كانت حتى ذلك الوقت سوى نزعة للنخبة الأرستقراطية، ولم تندمج بعد في الوعي الاجتماعي[2]، ودائرة العلم ما زالت ضيقة، والابتكارات التقنية ضعيفة التأثير ستنتظر حتى نهاية القرن السابع عشر والثامن عشر ليتقدم التيار الفكري الذاهب من غاليلو إلى نيوتن ليعد حجارة بناء جديدة، مع الاكتشافات الجديدة لأمريكا، والالتفاف حول ديار الإسلام نحو الهند للاستحواذ على طرق التجارة، مع معايير جديدة للعلم والثقافة، يرافقها الإصلاح الديني، والنزعة التجريبية العلمية، والتنوير، كل هذا سيجري لاحقاً. أما الآن في ظروف التقدم العثماني على الجبهة الأوروبية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، فالحال ستكون صعبة بالنسبة لأوروبا. فبالإضافة إلى وباء الطاعون الذي اجتاح أوروبا منذ 1347 فحصد ما شاء من الأرواح في إيطاليا وإسبانيا وفرنسا وألمانيا وانجلترا واسكندنافيا والنمسا وبولونيا وروسيا[3] فالقرن الرابع عشر كان أيضاً شاهداً على سلسلة من الكوارث غير الملائمة للتجدد السياسي، فإن انحطاطاً اقتصادياً كبيراً هو واحد من أطول فترات الانحطاط في التاريخ قد بدأ حوالي عام 1280. ولم يكن باستطاعة أية حكومة أوروبية أن تحمي نفسها من هذا الانحطاط وما رافقه من مجاعة وطاعون، وكان من الصعب رسم حدود فاصلة في أوروبا بين تداخلات مناطق النفوذ. وعلى

(1) كلود ديلماس، تاريخ الحضارة الأوروبية، كوليت حبيب، الفن الحديث، ط 1، بدون تاريخ، ص 90.
(2) هربرت فيشر، أصول التاريخ الأوروبي الحديث، مصدر سابق، ص 41.
(3) عبد العزيز محمد الشناوي، أوروبا في مطلع العصور الحديثة، مصدر سابق، ص 537.

الرغم من أن عدة دول سترى النور: ألمانيا الجنوبية الشرقية لآل هابسبورغ، ودولة تسكانيا، وخروج فرنسا وانجلترا من حرب المئة عام وهما تتلمسان هويتهما القومية، إلاّ أن الحروب الصغيرة وعمليات الزواج، وتقاسم المواريث ستؤدي إلى تقلب الحدود والدول بصورة فوضوية[1]. أما على مستوى علاقات القوى ضمن أوروبا، فلا تزال أوروبا تقع تحت وطأة الصراع البابوي/الإمبراطوري الذي شهدته القارة بكل مظاهره منذ فريدريك الثاني، ولكن استمرار إصرار (البابوية) ابتداءً من غريغوري السابع على مشروع التسيّد على العالم المسيحي، سينال من مستوى اهتمامها المحلي في إيطاليا، وبقضاياها الأرضية، وإذ هي تحاول تحجيم دور الامبراطور، حجمت دورها هي لأنها وضعت نفسها تحت وصاية أمير زمني آخر: (شارل انجو) الفرنسي وخلفائه، وفي النهاية سيُقضى على حلمها الكوني عام 1303 عندما اعتدى عملاء التاج الفرنسي: فيليب الرابع، على البابا بونيفاس الثامن[2]، وستفقد الامبراطورية الرومانية المقدسة، من جهتها، سطوتها على ألمانيا عندما يُفقدها تشاغلها بالمشكلة الإيطالية/والبابوية قدرتها على الاهتمام بموقعها الألماني الذي هو موطنها، ومثلما يقول توينبي: «فقد كان التاج الإمبراطوري عبئاً ثقيلاً، خسر فيه التاج الألماني سيطرته على موطن الامبراطور»[3].

الكنيسة الكاثوليكية نفسها ستنقسم إلى رأسين، من عام 1378 إلى عام 1417، انعكاساً للتنازعات الدولية الدنيوية. نُصّب اثنان من (البابوات) أحدهم في (أفينيون) تحت سطوة فرنسا، والثاني في روما، موضوع الخلاف سينصب على ما إذا كانت البابوية يجب أن تكون بيضة القبان الفرنسي، أم تعود إلى القبان الإيطالي.

وحدها إسبانيا ـ التي ستصبح في القرن السادس عشر قاعدةً لإمبراطورية

(1) راجع: جوزيف شتراير، الأصول الوسيطة للدولة الحديثة، محمد عيتاني، دار التنوير، بيروت ط 1، 1982، ص 60 ـ 62.
(2) أرنولد توينبي، تاريخ البشرية، جزء ثاني، مصدر سابق، ص 202.
(3) المصدر السابق، ص 172.

عظمى سيستغرق صراعها مع العثمانيين فضاء القرن السادس عشر بكامله ـ وحدها إسبانيا مع البرتغاليين ستكونان مستعدتين، دائماً، منذ القرن الثالث عشر لتقتنصان أية سانحة للتقدم على حساب عرب الأندلس، وستستفحل قوتهما وخطرهما باطراد على الجبهة العربية ـ الإسلامية هناك، ولن يوقفهما، عندما اجتاز المتوسط إلى المغرب العربي إلا العثمانيون بالتعاون مع عرب إفريقيا. ولكن ستكون الأندلس قد ضاعت إلى الأبد.

جبهتان متناظرتان من حيث النتائج ستتبادلان الأدوار والمصائر منذ القرنين الرابع عشر والخامس عشر: جبهة الأناضول/البلقان على أطراف الحوض الشرقي للمتوسط، وجبهة أسبانيا، البرتغال/غرناطة، المغرب العربي. بقدر ما يخسر فيه الغرب هناك موقعاً سيربحه في الجبهة المقابلة. وعندما يطل علينا القرن السادس عشر، سندخل معه والعالم حقبة التبدلات والانقلابات الكبرى، ومعها التناظرات العظمى للقوى والترتيبات السياسية، على كلا جبهتي المواجهة: دار الإسلام و«دار الحرب».

أوروبا ستبقى ممزقة بين الإمبراطورية الرومانية المقدسة من قاعدتها في ألمانيا والتي ستصبح القوة الأعظم المتحكمة في موازين القوى الأوروبية، تنازعها المواقع والقوى: فرنسا والبابوية. أما على الجبهة المقابلة: الإسلامية، فستكون القوة العثمانية قد بلغت أعزّ مواقعها، وتبوأت جانب الصدارة الإسلامية، تنازعها الهيمنة والزعامة: إيران الشيعية.

الامبراطورية الرومانية المقدسة، والامبراطورية العثمانية ستتغالبان وسيغطي صراعهما على الغلبة مساحة القرن السادس عشر برمتها. ستمد القوى المسيحية يدها إلى (فارس) للاستقواء بها على الامبراطورية العثمانية وشاقة بذلك الجبهة الإسلامية، وسيمد المسلمون ـ الممثلون بالعثمانيين ـ اليد إلى فرنسا وإلى كل قوى الإصلاح الديني: اللوثريين، والكالفانيين، والترنجليين وجماعة هس.. ستتجابه تلك القوتان على البر والبحر، ليس في المتوسط وحسب بل على أطراف الأطلسي، في بحر العرب، والبحر الأحمر، والخليج العربي، والمحيط الهندي، وعلى نتائج تلك المعركة سيتوقف مصير العالم

لعدة قرون، قوتان ارتدت كل منهما الجلباب الديني: الإسلام، المسيحية، ولكنهما لم ينسيا ولا لحظة قضايا العالم الأرضية، والمصالح المادية والرمادية للدول وللبشر.